أثر السياق بتحديد مرجعية الضمير – نماذج مختارة من سورتي البقرة وآل عمران –

م .د / حسن سعيد عبد هاشم الموسوي
م.م/ علي زيد عبد الأمير الدليمي
جامعة بابل /كلية التربية للعلوم الانسانية /بابل /العراق
University of Babylon/Faculty of Education for Humanities/Babylon/Iraq

ملخص البحث :

القرآن الكريم كان وما يزال وسيبقى معجزةً يصعب على العقول فهم كنهها وإدراك معانيها ، فهو يمثل رسالة السماء وما يريده المعبود من عباده، لذلك نجد أنّه قد صيغت ألفاظه وعباراته بألطف صياغة واروع أسلوب وأدق نظم ، فرسم للحرف الواحد موضعه الذي يستحقه وربط كلمات الآية الواحدة بعضها ببعضها الآخر بتناسق عجيب يجعل من المستحيل أن تفصل بينها لتبيان دلالاتها ومقاصدها، بل نجد في بعض الاحيان ربط آيتين أو أكثر بعضها ببعضها الآخر وكأنها لوحة فنية رسمت بأبداع قل نظيره ، وهذا ما نطلق عليه بـ(السياق) فتناولنا في هذا البحث أثره في تحديد مرجعية الضمير في سورتي البقرة وآل عمران؛ لانميازهما بالطول أولاً ، ولتنوع صور عود الضمير فيها ثانيًا.

الكلمات المفتاحية : السياق – عود الضمير – تحديد الدلالة.

Abstract :

The Holy Quran was, is, and will remain a miracle that is difficult for the mind to comprehend its essence and grasp its meanings. It represents the message of heaven and what the worshipped One wants from His servants. Therefore, we find that its words and phrases have been formulated in the most delicate formulation, the most wonderful style, and the most precise organization. It has given each letter the right place it deserves, and linked the words of each verse to each other with an amazing harmony that makes it impossible to separate them to clarify their meanings and purposes. Rather, we find in some verses linking two or more verses to each other as if they were an artistic painting drawn with unparalleled creativity. This is what we call "context." In this research, we have discussed its effect in determining the reference of the pronoun in Surat Al-Baqarah and Surat Al-Imran, due to their distinction in length first, and the variety of images of the pronoun's return in them second.

Keywords : Context - pronoun return - determining meaning .

التمهيد:

أولاً : السياق لغة واصطلاحًا :

السياق في اللغة : ذكرَ أصحابُ المعاجم معانيَ متعددة لكلمة ((السياق)) منها أنّها مصدر للفعل((ساق)) فيقال: ((ساق البعيرَ يسوقه سوقًا))، ومنها أنّها بمعنى دفع المهر للمرأة أي: الصَداق ، وترد أيضًا بمعنى نزع الروح عند الاحتضار، وبمعنى التابع والقريب(١).

السياق في الاصطلاح :

تناول الشافعي معنى السياق في الإطار الاصطلاحي له فقال: ((وإنّ فطرته أن يخاطب بالشيء منه عامًا ظاهرًا يراد به العام الظاهر، ويستغني بأول هذا منه عن آخره ، وعامًا ظاهرًا يراد به العام ويدخله الخاص ، وظاهرًا يعرف في سياقه أنّه يراد به غير ظاهره فكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره))(٢)، وتناوله الطبري في أثناء حديثه على قوله تعالى:﴿

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ ﴾ [سورة النساء: من الآية ١٢٧]، إذ ذكر أقوالاً في تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ** ﴾ إلاّ أنّه رجح أن يكون في الميراث على أن يكون في الإقساط لصدقات يتامى الناس فقال: ((لأنَّ الله قال في سياق الآية مبيّنًا عن الفتيا التي وعدنا أن يفتيناها في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن ، فأخبر أنّ بعض الذي يفتينا فيه من أمر النساء أمر اليتيمة المحولة بينها وبين ما كتب الله لها ، والصداق قبل عقد النكاح ليس مما كتب الله لها على أحد ، فكان معلومًا بذلك أنّ التي عنيت بهذه الآية هي التي حيل بينها وبين الذي كتب لها مما يتلى علينا في كتاب الله، فإذا كان ذلك كذلك، كان معلومًا أنّ ذلك هو الميراث الذي يوجبه الله لهن في كتابه))[٣].

ثانيًا : عود الضمير :

الضمير (فعيل بمعنى اسم المفعول)، أقول : أضمرتُ الشيء في نفسي أي: أخفيته وسترته فهو مضمر، وسمي بذلك لكثرة استتاره على حدّ تعبير النحويين بذلك ، وقيل سُمّي بالضمير لعدم صراحته كالأسماء المظهرة، وقيل – أيضًا– أنّه سُمّي بالضمير من الضمور وهو الهزال ؛ لقلة حروفه في الغالب ولحملها صفة الهمس من الجانب الصوتي واعني بذلك حروف (التاء، الكاف، الهاء)، وهو مصطلح بصري ويسميه الكوفيون بـــ (المكني) أو(الكناية)، والغرض منه الايجاز والاستغناء عن ذكر الاسم بتمامه[٤]، ويتخذ عود الضمير صورًا عدّة نوردها على النحو الآتي :

أ- عوده على الاسم المتقدم، قال تعالى: ﴿ **وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ** ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٢٢٤].

ب- عوده على متأخر في اللفظ متقدم في الرتبة، قال تعالى: ﴿ **فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ** ﴾ [سورة طه: الآية ٦٧].

ت- عوده على متأخر لفظًا ورتبة كضمير الشأن، والغرض من ذلك التعظيم والتفخيم ، قال تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ [سورة الاخلاص: الآية ١].

ث- قد يستغني عن ذكر ما يعود عليه الضمير بما يدل عليه دلالة حسية، قال تعالى: ﴿ **قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي** ﴾ [سورة يوسف: من الآية ٢٦] فالضمير يعود على امرأة العزيز على الرغم من عدم ذكرها بشكل صريح فهو مدلول عليه حسيًا[٥].

ج- قد يدل على المفسر – وهو ما يعود عليه الضمير – العلم به[٦] وإن لم يتقدم للمفسر ذكر ، قال تعالى: ﴿ **إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ** ﴾ [سورة القدر: الآية ١] إذ ((النزول في ليلة القدر التي هي في شهر رمضان دليل على أنّ المنزل هو القرآن مع قوله تعالى: ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقانِ**﴾[سورة البقرة: الآية ١٨٥]))[٧] ، وقد لا يتقدم المفسر صراحة ، وإنّما يتقدم ما يدل عليه، قال تعالى: ﴿ **اعْدِلُوا هو أَقْرَبُ لِلتَّقْوى** ﴾ [سورة المائدة: من الآية٨] فالضمير (هو) دال على العدل الذي دلّ فعله المذكور عليه.

ح- قد يتقدم شيئان أو أكثر ويصلح أن يعود الضمير على كل واحد منهما ، فينبغي عندئذٍ عوده على الأقرب، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ** ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٠] فالضمير في (عنه) عاد على الأقرب وهو الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ويجوز أن يعود على الأبعد مع وجود قرينة دالة على ذلك ، قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا** ﴾ [سورة الجمعة: من الآية ١١] فالضمير في (إليها) عائد على التجارة ؛ لأنّها سبب الانفضاض عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو يخطب

والمقام يقتضي ذلك[٨]، وفي قوله تعالى: ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ** ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٥] فأعاد الضمير على الصلاة؛ لأنّ الكلام منصب عليها فقد تقدم ذكرها والمطالبة بها في ذات السورة بقوله تعالى: ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ** ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٣].

خ- إذا جاء مضاف ومضاف إليه ، فالأصل أن يعود الضمير على المضاف؛ لأنّه المتحدث عنه ، قال تعالى: ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا** ﴾ [سورة إبراهيم: من الآية ٣٤] ، وقد يعود على المضاف إليه بقرينة دالة على ذلك، قال تعالى: ﴿ **فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا** ﴾ [سورة الاحقاف: من الآية ٣٥] كأنّ فرعون لما رأى نفسه أقرّ بالألوهية غلطًا في قوله (إِلَٰهِ مُوسَىٰ) استدرك بقوله (وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا) فعاد الضمير على (موسى) ليثبت لقومه صدقه بادعائه أنّه ربهم الاعلى ويكذب ما جاء به النبي موسى (عليه السلام)[٩].

المبحث الأول : أثر السياق بتحديد مرجعية الضمير على أقرب المذكورين

النموذج الأول :

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٤].

قيل في مرجعية الضمير بكلمة (فَمَثَلُهُ) رأيان هما :

أ- إنّه عائدٌ على (الَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ) وهذا ما رجحه الزمخشري بقوله: ((مَثَلُهُ ونفقته التي لا ينتفع بها البتة بصفوان بحجر أملس عليه تراب))[١٠]، وتابعه في ذلك أبو حيان الاندلسي فقال: ((فالظاهر أنّه عائدٌ على (الَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ)))[١١] فاستعمل كلمة((الظاهر)) لترجيح هذا الرأي، وذهب السيد الطباطبائي إلى ترجيح هذا الرأي – أيضًا– فقال: ((الضمير في قوله(فمثله) راجع إلى الذي ينفق ماله رئاء الناس والمثل له.....والضمير في قوله (لا ينفقون) راجع إلى الذي ينفق رئاء؛ لأنّه في معنى الجمع والجملة تبين وجه الشبه بين المشبه والمشبه به ، وقوله تعالى(والله لا يهدي القوم الكافرين) بيان الحكم بوجه عام وهو أنّ المرائي في ريائه من مصاديق الكفر ولذلك أفاد معنى التعليل))[١٢].

ب- وقيل إنّه عائدٌ على المَانّ المؤذي، وهذا ما رجحه الطبرسي بقوله: ((شبّه سبحانه فعل المنافق والمنّان بالصفا الذي أزال المطر ما عليه من التراب فإنّه لا يقدر أحد على ردَّ ذلك التراب عليه كذلك إذا دفع المنّان صدقة وقرن بها المنّ فقد أوقعها على وجه لا طريق له إلى استدراكه وتلافيه لوقوعها على الوجه الذي لا يستحق عليه الثواب))[١٣]، والراجح هو الرأي الأول بدليلين هما:-

١. وجود قاعدة نحوية تشير إلى عود الضمير على الأقرب إذا ما تقدم عليه شيئان أو أكثر مما يصلح كل منهما للتفسير[١٤]، وشرط مخالفة هذه القاعدة يعتمد على وجود قرينة دالة لعوده على الأبعد، وهذا غير متحقق في الآية – مورد البحث – إذ لا يوجد دليل قاطع بعود الضمير على المانّ المؤذي على نحو ما صرّح به الطبرسي.

٢. افتتح الله جل وعلا الآية التالية لآية – مورد البحث – بقوله تعالى: ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٥] ، فالسياق ينبئ بوضوح أنّ الحديث يدور حول الإنفاق لا المنّ.

النموذج الثاني :

قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآيات ٥٩– ٦١].

تناول المفسرين مسألة عود الضمير في قوله تعالى(فمن حاجك فيه)، فذهب بعضهم إلى عده عائدًا على عيسى((عليه السلام)) المتقدم ذكره[١٥]، في حين رأى فريق منهم بأنّه يمكن عوده على الحق أو على عيسى ((عليه السلام))[١٦]، ويترجح عندنا عود الضمير في كلمة(فيه) من قوله تعالى(فمن حاجك فيه) على(الحق)؛ لكونه أقرب مذكور، فضلاً عن أنّ كلمة(الحق) تُعدُّ من الكلمات المحورية في القرآن الكريم ، وقد وردت بمعانٍ عدة نذكر منها ما يأتي:–

١. القرآن الكريم[١٧] نحو قوله تعالى: ﴿ **فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾ [سورة الأنعام: الآية٥].
٢. الإسلام[١٨] نحو قوله تعالى: ﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴾ [سورة الاسراء: الآية٨١].
٣. العدل[١٩] نحو قوله تعالى: ﴿ **يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ** ﴾ [سورة النور: الآية٢٥].
٤. التوحيد[٢٠] نحو قوله تعالى: ﴿ **وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾ [سورة القصص: الآية٧٥].
٥. الصدق[٢١] نحو قوله تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ** ﴾ [سورة البقرة: الآية١٧٦].

فلعلّ هذه المعاني جميعها قد ضُمّنت في قوله تعالى: (الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ) ، وتكون مسألة تشابه خلق عيسى وآدم ((عليهما السلام)) منصهرة ضمن هذا المفهوم العام المستوحى من كلمة (الحق) – والله تعالى اعلم بالصواب – .

المبحث الثاني : أثر السياق بتحديد مرجعية الضمير على المضاف والمضاف إليه

النموذج الأول:

قال تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ**﴾ [سورة البقرة: من الآية٢١٧].

قيل في الضمير(الهاء) في (به) من قوله تعالى:(وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ) أنّه عائدٌ على المضاف(السبيل)، أو على المضاف إليه (لفظ الجلالة الله) ، والأول هو الراجح ؛ لأنّه هو المحدث عنه ، وبهذا الصدد يقول أبو حيان الاندلسي: ((والضمير في(به) يعود على السبيل ؛ لأنّه هو المحدث عنه بأنّه صد عنه والمعنى: وكفر بسبيل الله وهو دين الله وشريعته))[٢٢]، وذكر السمين الحلبي كلا الوجهين إلاّ أنّه رجح عود الضمير على المضاف (السبيل)[٢٣]، والسيد الطباطبائي هو الآخر رجح عود الضمير على المضاف بقوله:((والظاهر أنّ ضمير(به) راجع إلى السبيل فيكون كفرًا في العمل دون الاعتقاد))[٢٤]، وعدّ ابن عاشور الضمير عائدًا على لفظ الجلالة[٢٥]، ولا يترجح عندنا هذا الرأي؛ لأنّ سياق الآية الكريمة يتحدث عن القتال في الشهر الحرام والصد عن سبيل الله فالكفر حاصل بهذا الاطار لا الكفر بالذات الآلهية.

النموذج الثاني:

قال تعالى: ﴿ **تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [سورة آل عمران: الآية١٠٨].

قرأ أبو نهيك* (نتلوها) بالياء أي (يتلوها) ، وهذه القراءة دفعت أبا حيان الاندلسي إلى ترجيح عود الضمير على لفظ الجلالة وهو المضاف إليه فقال: ((وقرأ أبو نهيك بالياء والاحسن أن يكون الضمير المرفوع في نتلوها في هذه القراءة عائدًا على الله ليتحد الضمير))[٢٦]، والمقصود باتحاد الضمير اتفاقه مع ضمير الشأن في(يريد) ليجري الضمير بنسق موحد ولم نجد في المصادر التي وقفنا عليها ذكرًا لهذه القراءة مما يمكننا القول بأنّ أبا حيان الاندلسي قد انفرد بذلك ، وقد المح إلى عدم تقبل الجمهور لهذه القراءة بقوله:((وقرأ الجمهور(نتلوها) بالنون على سبيل الالتفات لما في اسناد التلاوة للمعظم ذاته من الفخامة والشرف))[٢٧]، ونرجح قراءة(نتلوها) بالنون مع عود الضمير على لفظ الجلالة (المضاف إليه) ؛ وذلك لأنّ الله جل وعلا يتحدث عن ذاته القدسية بأسلوب الجمع وهذا ظاهر للعيان في النص القرآني ومن مصاديق ذلك قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [سورة الحجر: الآية٩] ، وعودًا على ذي بدء نجد أبا حيان يذكر رأيًا آخرا لعود الضمير في(نتلوها) بالاعتماد على قراءة أبي نهيك وهو عوده على جبريل((عليه السلام))[٢٨]، ونرى أن هذا الرأي يُعدَّ غريبًا إذ لا ذكر لجبريل ((عليه السلام)) في الآية المباركة.

المبحث الثالث : أثر السياق بترجيح عود الضمير على المفرد والجمع

النموذج الأول :

قال تعالى: ﴿ **وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [سورة آل عمران: الآية٧٥].

قيل في عود الضمير بكلمة (بأنهم) في الآية الكريمة ثلاثة آراء هي :-

١. إنّه عائدٌ على اليهود[٢٩].
٢. إنّه عائدٌ على لفيف بني اسرائيل[٣٠].
٣. إنّه عائدٌ على (مَنْ) في قوله تعالى: (مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ)، ويبدو أن هذا الرأي قد تبناه أبو حيان الأندلسي ورجحه مستعملاً كلمة (الأظهر) للتعبير عن ذلك، إذ يقول: ((والأظهر أنّه عائدٌ على (مَنْ) في قوله (مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ) وجمع حملاً على المعنى))[٣١] ، ويترجح عندنا هذا الرأي ؛ لأنّ صدر الآية المباركة يتحدث عن صدق أمانة بعض أهل الكتاب و(مِنْ) هنا تبعيضية ، أما حمل الضمير في كلمة (بأنهم) على اليهود جميعًا، أو على لفيف بني اسرائيل فهو مما لا يتناسب مع افتتاح الآية، وهكذا كان للسياق الأثر المهم في تبيان المقاصد القرآنية من عود الضمير على المفرد في الآية مع جمعه حملاً على المعنى.

النموذج الثاني :

قال تعالى: ﴿ **فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ**﴾ [سورة البقرة: الآية٣٦].

يلاحظ في الآية المباركة أنّ الله تعالى خاطب آدم وحواء بخطاب الجمع فقال (اهبطوا) ، لذلك ذهب المفسرون إلى إيضاح ذلك ، وكانت لهم آراء متباينة نعرضها على النحو الآتي:-

١. يرى الاخفش أنّ الخطاب قد شمل ابليس بالإضافة إلى آدم وحواء ((عليهما السلام)) لذلك جاء الضمير بصيغة الجمع ، وأيد ذلك الزجاج أيضًا[٣٢]، فالهبوط شمل الجميع مع اختلاف الوقت ، فإبليس سبق آدم وحواء ((عليهما

السلام)) بالخروج من الجنة عندما لم يمتثل للأمر الإلهي بالسجود لآدم ((عليه السلام)) بدلالة قوله تعالى: ﴿ **قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ** ﴾ [سورة الحجر: الآية٣٤].

٢. يرى الزمخشري أنّ الخطاب كان لآدم وحواء ((عليهما السلام)) والمراد هما وذريتهما؛ لأنّهما لمّا كانا أصل الإنس ومنهم تتشعب البشرية جعلا بمثابة الإنس كلهم ، واستشهد بقوله تعالى: ﴿ **قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [سورة البقرة: الآيتان٣٨– ٣٩] لأثبات صحة رأيه ؛ لكون الحكم فيها عام للناس كافة(٣٣).

٣. ذهب ابن عاشور مذهبًا مغايرًا لما تقدم ، ورأى أن جمع الضمير يراد به التثنية لكراهية توالي المثنيات بالإظهار والاضمار من قوله تعالى: ﴿ **وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا**﴾ [سورة البقرة: من الآية٣٥] والعرب تستثقل مثل ذلك(٣٤) ، ويعضد ابن عاشور رأيه هذا بقوله تعالى: ﴿ **إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا**﴾ [سورة التحريم: من الآية٤] ، ولا نجد في الآية دليلاً على صحة ما ذهب إليه ابن عاشور ؛ لأنّ الاعضاء لا تثنى بل تجمع ثم تضاف إلى ضمير التثنية ، فنقول في التوكيد مثلاً: جاء الطالبان أنفسهما ولا نقول نفسيهما.

٤. أيّد السيد الطباطبائي عود الضمير في كلمة (اهبطوا) على آدم وحواء وابليس ، وذكر أنّ الله تعالى بعد أن أفرد ابليس وخصّه بالخطاب وحده في قوله تعالى: ﴿ **قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ**﴾ [سورة الأعراف: الآية١٣]، عاد هنا ليذكره في خطاب آدم وحواء ويجمع بين الخطابين ليشير إلى قضائه تعالى بحصول العداوة بين ابليس من جهة، وبين آدم وزوجته وذريتهما من جهة أخرى، فضلاً عن الإشارة لقضائه بأن تكون الحياة في الأرض والموت فيها والبعث منها، وادخال ذرية آدم في هذا الحكم يمكن استشعاره من قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ**﴾ [سورة الأعراف: الآية١١] ، فسجود الملائكة لآدم كان سجودًا تكريمًا له؛ لكونه خليفة الله في الارض(٣٥)، ويترجح عود الضمير في كلمة (اهبطوا) على آدم وحواء وابليس ؛ لتقدم ذكر الشيطان في بداية الآية المباركة– مورد البحث – ، ولتحقق العدالة الالهية والجزاء للفعل الصادر من المزل ابليس الذي لم يمتثل لأمر الله ورفض السجود لآدم ، والزال ادم وحواء اللذين رضخا لوسوسة الشيطان وأكلا من الشجرة التي نهاهما الله من التقرب إليها – والله وحده العالم بالصواب–.

خاتمة البحث :

بعد أن جلنا في رحاب النص القرآني ، وتناولنا أثر السياق ودوره الكبير في تبيان المقاصد والدلالات القرآنية ، نود أن نسجل النتائج التي تمخض عنها البحث على النحو الآتي:–

١. لا يقتصر السياق على ربط كلمات الآية الواحدة بعضها ببعضها الآخر للوصول إلى الدلالة القرآنية المقصودة ، بل قد يشمل ذلك ربط آيتين أو أكثر لتحقيق هذا الهدف.

٢. ترد بعض المفردات القرآنية بمعانٍ عدة، وبعود الضمير عليها تكون تلك الدلالات مجتمعة في اللفظ الواحد وقد تكون مطلوبة جميعها في النص وهذا ما يتجلى في لفظة(الحق) مثلاً.

٣. يبرز عود الضمير والصورة التي يكون عليها وجه العدالة الإلهية في بعض الاحيان ، ويتجلى ذلك في عود الضمير مجموعًا في كلمة(اهبطوا) ليشمل آدم وحواء وابليس .

٤. يرسمُ عود الضمير في بعض صوره دروسًا تربوية يمكن الاستفادة منها في حياتنا اليومية ، بل يجب أن نتمسك بها، ومما ورد في البحث ما يشير إلى ذلك عود الضمير على المنفق ماله بداعي الرياء والنهي عن ذلك.

٥. الاعتماد على القراءات القرآنية احيانًا لترجيح مسألة عود الضمير ، ويتجلى ذلك باعتماد أبي حيان الاندلسي على قراءة أبي نهيك لترجيح عود الضمير على المضاف إليه.

هوامش البحث :

١. ينظر: جمهرة اللغة : مادة (سَوَق) ٤٣/٣ ، ومقاييس اللغة: مادة (سَوَق) ١١٧/٣، والصحاح: مادة (سَوَق) ٥٥٣، والقاموس المحيط : مادة (سَوَق) ٦٥٠/٢.

٢. الرسالة: ٥٢.

٣. جامع البيان: ٤/ ١٩٤.

٤. ينظر: شرح شذور الذهب : ١٣٤، والتصريح : ١١٣/١ ، وحاشية الصبان : ١٠٩/١، والمصطلح النحوي : ١٧٤.

٥. ينظر: معاني النحو : ٦٧/١.

٦. ينظر: الهمع : ٦٥/١.

٧. شرح الرضي على الكافية : ٥/٢.

٨. ينظر: البرهان : ٣١/٤ ، ومعاني النحو : ٦٨/١.

٩. ينظر: البرهان : ٤/ ٣٩- ٤٠.

١٠. الكشاف: ٣١٢/١.

١١. البحر المحيط : ٣٠٩/٢.

١٢. الميزان : ٣٩٥/٢.

١٣. مجمع البيان: ٣٧٦/١.

١٤. ينظر: الاتقان في علوم القرآن: ٢٣٦/٢، و معاني النحو: ٥٨/١.

١٥. ينظر: الكشاف: ٣٦٨/١، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٢٠/٢، والبحر المحيط: ٤٧٩/٢.

١٦. ينظر: المحرر الوجيز: ٤٤٧/١، والتفسير الكبير: ٢٤٧/٨، والدر المصون: ٢٢٣/٣، والميزان: ٢٢٢/٣.

١٧. ينظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن: ١٠٩/٢.

١٨. ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٣١٥/١٠.

١٩. ينظر: تفسير ابن كثير: ٣٤/٦.

٢٠. ينظر: المصدر نفسه : ٢٥٢/٦.

٢١. ينظر: فتح القدير: ١٩٨/١.

٢٢. البحر المحيط: ١٤٦/٢- ١٤٧.

٢٣. ينظر: الدر المصون: ٣٩٣/٢.

٢٤. الميزان: ١٦٧/٣.

٢٥. ينظر: التحرير والتنوير: ٣٢٩/٢.

*أبو نهيك: هو علباء بن أحمر اليشكريّ الخراسانيّ له حروف من الشواذ تنسب إليه ، روى عن عكرمة مولى بن عباس ، ينظر: غاية النهاية في طبقات القراء: محمد بن محمد الجزري: ٥١٥/١.

٢٦. البحر المحيط: ١٦٧/٣.

٢٧. المصدر نفسه: ٢٩٧/٣.

٢٨. ينظر: المصدر نفسه والصحيفة نفسها.

٢٩. ينظر : مجمع البيان: ٤٦٣/١.

٣٠. ينظر : المحرر الوجيز: ٤٥٩/١.

٣١. البحر المحيط : ٥٠٠/٢.

٣٢. ينظر : معاني القرآن: ١٩٧، ومعاني القرآن وإعرابه: ١١٥/١.

٣٣. ينظر: الكشاف : ١٣١/١-١٣٢.

٣٤. ينظر: التحرير والتنوير: ٤٢٠/١.

٣٥. ينظر: الميزان: ١٣٣/١.

روافد البحث :

- **القرآن الكريم.**
- **الكتب المطبوعة :**

١. الإتقان في علوم القرآن: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي(ت٩١١هـ) ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، منشورات الهيأة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م.
٢. البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي(ت٧٥٤هـ)، تح: الشيخ عادل أحمد وآخرون ، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
٣. البرهان في علوم القرآن: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٢، المكتبة العصرية ، بيروت- لبنان، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.
٤. تفسير ابن عاشور المسمى (التحرير والتنوير): محمد الطاهر بن عاشور (ت١٣٣٩هـ) ، ط١، مؤسسة التاريخ ، بيروت- لبنان ، (د.ت).
٥. تفسير ابن كثير المسمى (تفسير القرآن العظيم): عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ) ، وضع حواشيه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين ، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٦. تفسير البغوي المسمى (معالم التنزيل في تفسير القرآن): أبو محمد الحسن بن مسعود البغوي (ت ٥١٠هـ) ، تح: عبد الرزاق المهدي ، ط١، دار احياء التراث العربي ، بيروت– لبنان، ١٤٢٠هـ.

٧. تفسير البيضاوي المسمى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل): أبو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي (ت٦٨٥هـ) ، ط١، منشورات مؤسسة الاعلمي ، بيروت– لبنان ، ١٤١٠هـ– ١٩٩٠م.

٨. التفسير الكبير أو مفتاتيح الغيب: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري(ت ٦٠٦هـ) ، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان ، ٢٠٠٩م.

٩. جامع البيان عن تأويل آي القرآن: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) ، تح: أحمد محمد شاكر، ط١، مؤسسة الرسالة ، بيروت– لبنان، ١٤٢٠هـ– ٢٠٠٠م.

١٠. الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ) ، تح: د. حامد أحمد طاهر ، ط١، دار الآفاق العربية ، القاهرة– مصر ، ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م.

١١. جمهرة اللغة: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت٣٢١هـ) ، دار المعارف العثمانية– حيدر آباد الدكن، ١٣٤٥هـ.

١٢. حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك : أبو العرفان محمد بن علي الصبان الشافعي (ت ١٢٠٦هـ) ، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت– لبنان ، ١٤١٧هـ –١٩٩٧م.

١٣. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ) ، تح: الشيخ عادل أحمد وآخرون، قدم له وقرضه : د. محمد أحمد صبرة ، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان ، ٢٠١٣م.

١٤. الرسالة: محمد بن إدريس الشافعي (ت٢٠٤هـ) ، تح: أحمد محمد شاكر ، مطبعة البابي الحلبي– مصر، ط١، ١٣٥٨هـ– ١٩٤٠م.

١٥. شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو وهو شرح للشيخ خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاويّ الأزهري (ت٩٠٥هـ) على أوضح المسالك إلى الفية ابن مالك للإمام هشام الانصاري : اعداد: محمد باسل عيون السود، ط١، منشورات ناب مصطفوي ، ، قم– ايران ، ١٤٣٢هـ.

١٦. شرح الرضي على الكافية: محمد بن الحسن الرضي الإستراباذي (ت ٦٨٦ هـ) ، تصحيح وتعليق: يوسف حسن عمر ، منشورات جامعة قاريونس، ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.

١٧. شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب: عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف جمال الدين ابن هشام (ت٧٦١هـ) ، تح: عبد الغني الدقر ، منشورات الشركة المتحدة للتوزيع ، دمشق– سوريا ، (د.ت).

١٨. الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية): أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي(ت٣٩٣هـ) ، تح: أحمد عبد الغفور عطار، مطابع دار الكتاب العربي، مصر ، (د.ت).

١٩. غاية النهاية في طبقات القراء: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) ، عني بنشره برجستراسر، مصر ، ١٣٥١هـ– ١٩٣٢م.

٢٠. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني(ت ١٢٥٠هـ) ، اعتنى به وراجع أصوله: يوسف الغوش، ط٤، دار المعرفة ، بيروت– لبنان، ١٤٢٨هـ– ٢٠٠٧م.ذ

٢١. القاموس المحيط: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ) ، تح: محمد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت– لبنان ، ط٨، ١٤٢٦هـ– ٢٠٠٥م.

٢٢. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري(ت٥٣٨هـ) ، ضبطه وصححه ورتّبه: محمد عبد السلام شاهين ، ط٥، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان ٢٠٠٩م.

٢٣. مجمع البيان في تفسير القرآن: أمير الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت٥٤٨هـ) ، وضع حواشيه وخرج آياته وشواهده : إبراهيم شمس الدين ، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت– لبنان، ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م.

٢٤. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت٥٤٦هـ) ، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد ، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت– لبنان ، ١٤٢٢هـ.

٢٥. المصطلح النحوي (نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري) : د. عوض حمد القوزي ، ط١، منشورات عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض ، المملكة العربية السعودية ، ١٤٠١هـ– ١٩٨١م.

٢٦. معاني القرآن: سعيد بن مسعدة الأخفش (ت٢١٥هـ) ، تح: د. عبد الأمير محمد أمين الورد، عالم الكتب ، بيروت – لبنان ، ١٤٢٤هـ– ٢٠٠٣م.

٢٧. معاني القرآن وإعرابه: إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج (ت ٣١١هـ) ، شرح وتحقيق : د.عبد الجليل عبده شلبي ، ط١، عالم الكتب ، بيروت – لبنان ، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

٢٨. معاني النحو: د. فاضل صالح السامرائي ، ط٢، شركة العاتك للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٣م.

٢٩. مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ) ، تح: عبد السلام محمد هارون ، ط٢، دار الفكر، بيروت– لبنان ، ١٩٧٢م.

٣٠. الميزان في تفسير القرآن: للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢هـ)، صححه وأشرف على طباعته: فضيلة الشيخ حسين الأعلمي، ط١، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت– لبنان، ١٤١٧هـ– ١٩٩٧م.

٣١. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) ، تح: عبد الحميد هنداوي ، المكتبة التوفيقية ، مصر ، (د.ت) ، (د.ط).